

بيبي فاطمة» لسلطان تقود القارئ بين ردهات التاريخ»



الشارقة:علاء الدين محمود

استضاف اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات، ضمن فعاليات نادي القصة أمس الأول، بمقره في قناة القصباء د.مَنّي بو نعامه مدير إدارة المحتوى والنشر في معهد الشارقة للتراث، في محاضرة حول رواية صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، «بيبي فاطمة وأبناء الملك»، تناول خلالها «الحبكة والسرد التاريخي»، فيما أدارت الندوة د. مانبا السويد.

مهد بو نعامه في حديثه عن الرواية بتبيان العلاقة بين السرد والتاريخ، والتي وصفها بعلاقة تكامل لاعتمادهما الحكي والاسترجاع والعودة إلى الماضي تقنية ووسيلة، وتتمثل أبرز أوجه العلاقات بين السرد والتاريخ في «الحبكة»، أو ما يصطلح عليه أيضاً «العقدة»، وهي التي تفرض وجود تنظيم متتابع للأحداث وفق: بداية، وسط، ونهاية. أشار بو نعامه إلى مكامن الاختلاف بين الرواية والتاريخ، وهي التي تتمثل في طبيعة الأحداث فيهما، حيث إنه لا يحكمها في التاريخ منطق خاص، وإنما يحددها الزمن التاريخي المتسلسل والواقعي، بينما في السرد تخضع هذه الأحداث لمنطق الراوي أو البطل.

وأكد بو نعامه أن هذا الترابط بين السرد والتاريخ يتجلى بوضوح في رواية «بيبي فاطمة وأبناء الملك»، والتي تسرد تاريخ مملكة هرمز ابتداءً من العام 1588 حتى 1622 بانتهاء الاحتلال البرتغالي وهزيمتهم أما الإنجليز، فالرواية تطرح العديد من القضايا المهمة التي تتصل أو تتواصل مع الإطار التاريخي والجغرافي الذي تنتظم فيه، وتكشف فصول الرواية الخمسة عن مراحل متقدمة من تصاعد السرد متكئة على أحداث متلاحقة، ورغم صغر حجم العمل الروائي إلا أنه جاء شديد العمق ويستند إلى أكثر من 35 مصدراً تاريخياً وثيقة.

وتناول المحاضر بداية أحداث الرواية في العام 1588 بلقاء بيبي فاطمة، بطلة الرواية بأبناء الملك فروغ شاه الثلاثة (فيروز شاه، توران شاه، محمد شاه)، وقد تزوجتهم جميعاً في فترات متعاقبة، الأمر الذي أكسبها ثلاث حيوات، قبل أن ينتهي بها الأمر هي وزوجها الأمير محمد شاه لاجئين في مدينة أصفهان، وقد تخلل هذه التسلسل الطويل للأحداث العديد من الصراعات القوية والدامية في هرمز على حكم البلاد، وبطبيعة الحال فإن السرد يتناول خلال عملية الصراع الجانب السياسي وطغيانه على مشهد الرواية.

وتوقف بو نعامه عند مستهل الرواية، حيث أن صاحب السمو حاكم الشارقة قد افتتحها بعتبة كاشفة وشارحة لكنها وطبيعتها وموضوعها، حيث يقول: «هذه رواية تحكي قصة امرأة طموحة، تتشبث بحكم ملوك هرمز الزائل في ظل الاحتلال البرتغالي لمملكة هرمز. وقد تم من خلالها الوصف التفصيلي للحياة الاجتماعية في هرمز، مع عدم إغفال الأوضاع العسكرية والسياسية والاقتصادية، فقد تم ذكرها دون تفصيل، حتى لا ننساق وراءها، فنخرج من سياق الرواية».

ويرى بو نعامه أن هذا العمل لا يمكن أن يوصف بالقصة الطويلة أو الرواية القصيرة، بل ربما هو ينتمي إلى الجنس الأدبي المعروف عالمياً وهو «النوفيل»، لكونها شديدة العمق والتكثيف والإحكام. ولفت بو نعامه إلى أن عبقرية العمل يكمن في أنه قد تضمن معلومات دقيقة ثرية بترابط فني وتقني، الأمر الذي يشير إلى المقدرة المتناهية لصاحب السمو حاكم الشارقة في استحضار وتوظيف التاريخ في الكتابة السردية، متوقفاً عند وصف المدن، والأماكن، والشخصيات، وأحوال السكان وحياتهم وأوضاعهم، كما وثقت أحداثاً مهمة بأسلوب مميز، وكأننا نقف من خلال البناء السردى للرواية على صيغة جمعت بين البناء المسرحي والسيناريو الذي يحقق المعاشية للقارئ حيث يصف سموه مسرح الحدث، ويأخذ القارئ من يده وعقله إلى المشهد، ومن ثم ينسحب تاركاً القارئ مندمجاً مع الأحداث.

وتوقف بو نعامه باستفاضة عند الشخصية المحورية في الرواية «فاطمة» أو «حبيبة نور الدين»، أو «بيبي فاطمة»، والتي يصفها بالشخصية التراجيدية، وتمر بالكثير من التقلبات حيث تقرّر اعتناق النصرانية للتخلص أو الهروب من زواج لا تريده في ذروة مأساتها وحزنها على زوجها؛ فهي «مطلقة فيروز شاه، وأرملة توران شاه، وزوجة محمد شاه»، ثم ينقلنا بو نعامه إلى مشهدية لافتة في السرد مع بيبي فاطمة وهي تخاطب الحشود حولها من الناس، وتجر أولادها بيد، وبالأخرى ترفع مصحفاً، وبصرها إلى السماء، وهي تدعو ربها قائلة: «إلهي.. أنا بيبي فاطمة، حفيدة رسولك إلهي بحق رسولك الكريم.. أن تزلزل أقدامهم وتحطم جيوشهم».

ويبحر بو نعامه في عمق الجوانب الفنية للعمل، حيث إن البناء السردى والتاريخي للرواية يعكس بجلاء قدرة صاحب السمو حاكم الشارقة الكبيرة على ارتياد عوالم السرد، ونسج خيوطها بلغة سلسة وشفافة تنتظم ضمن «السهل الممتنع»، فالرواية تنهض على لغة ممتعة، ومقدرة متفردة على الرصد والتصوير وهي التقنيات التي أثرت العمل السردى كثيراً، ونجح بها سموه في تصوير العوالم التاريخية والسياسية، كما تكشف عن حسه التاريخي المرفه الإبداعي المتميز، فضلاً عن خبرته ودربته ومراسه في الكتابة ودراسة التاريخ استناداً إلى الوثائق الحقيقية التي أماطت اللثام عن صورة «بيبي فاطمة» وقصتها التراجيدية كإحدى النساء الشهيرات في تاريخ جزيرة هرمز. وفي ختام الأمسية كرم الدكتور محمد حمدان بن جرش الأمين العام لاتحاد كتّاب وأدباء الإمارات بونعامه ومانيا سويد

